

من تاريخ التعريب

القسم الأول: النهضة اللغوية في الشام عقب جلاء الأتراك

د. مازن المبارك

مازالت العامية من ناحية واللغة الأجنبية من ناحية أخرى تزحفان حتى زاحمتا العربية في عقر دارها، وأخذت كل منهما حيزًا استعملت فيه حتى أصبح العربي الصادق الإحساس بعروبه يتأذى سمعه وتقذى عينه لكثرة ما يسمع وما يرى مما يחדش إحساسه ويؤذي شعوره، فلقد فحرت العامية واستغلت الأجنبية بوقاحة في أسواقنا وأسماء محالنا وشركاتنا التجارية ومؤسساتنا، وفي شوارعنا وبعض صحافتنا... واهتمَّ المسؤولون بنظافة البيئة ونقائها في هوائها ومائها وتربتها، ووضعوا لذلك التشريعات اللازمة، وسخروا الإعلام للتبصير بنظافة البيئة وغفلوا، سامحهم الله، عن تنقية أقدس البيئات وأشرفها وهي البيئة اللغوية، فتركوها تمتلئ بالشوائب والمؤذيات، وهم لو قَدَرُوا حق قَدَرها لعلموا أنها على المدى البعيد من أخطر البيئات، وأن عدم المحافظة عليها هو الخطر الذي يهدد الانتماء ويهدد الوحدة ويهدد الوجود!

ولقد دعاني هذا الذي رأيته وسمعته من استعلاء الأجنبية وزحف العامية ومن انتشارهما وتوهُم الجاهلين الفخر بهما، حتى بات صاحب المحل الصغير من العامة يكتب على محله في حارة صغيرة من أحياء دمشق القديمة «ميني ماركت أبو علي»!! ودعاني ما رأيته من تواري العربية وكأنها خجلة لا تظهر في حياتنا إلا وقد استغشت ثيابها وأطلت على استحياء شاعرة بغريتها عن أهلها..

أقول: لقد دعاني هذا إلى العودة بالذاكرة إلى عهد قريب لأرى كيف كانت البيئة اللغوية في بلادنا على غير ما نهمى ويهوى كل عربي، وكيف استطاع المخلصون من أبناء شعبنا أن ينزعوا ثوب العجمة والغربة بين عشية وضحاها وأن

يعيدوا إلى الوطن وجه لغته العربية الجميلة وبيائها المشرق.

لقد كانت العامية المرقية في المزج بين الحروف والخلط بين اللغات الدخيلة مهيمنة في البيوت والأسواق، وكانت التركية لغة التدريس في البلاد، بل كانت اللغة العربية نفسها تدرّس باللغة التركية وتُملَى قواعد نحوها وأحكامها النحوية بالتركية.. لقد كانت اللغة التركية لغة البلاد في جميع مجالات الحياة بلا استثناء، لكن ذلك سرعان ما زال بعد زوال الحكم الذي فرضه، وسرعان ما أشرقت مع التحرر والاستقلال شمس العروبة ولغتها.

فلم يكد الأتراك يغادرون بلاد الشام، ولم يكد يُعلن تأليف أول حكومة عربية يوم ٥ / ١٠ / ١٩١٨م حتى ظهرت حماسة المخلصين في السعي لنزع ثوب التتريك الذي لبسته البلاد في لغة دواوينها ومراسلاتها، وفي مدارسها وكتبها، وفي جيشها وكل ما يتصل به من رتب وألقاب وإيعازات وأسماء أسلحة...، والعمل على إلباس البلاد ثوب العربية المشرق. ولم تمضِ مدّة تذكر حتى غدت العربية صوت المنشدين من الطلاب، ولغة الخطباء والوعاظ والقادة، ولغة المراسلات في إدارات الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية، ولغة الكتّاب في الصحف، والمؤلفين في مؤسسات التعليم.

لقد شهدت بلاد الشام في تلك الأيام حماسة منقطعة النظير للتعريب في الألسنة والأقلام، وهيمنت في البلاد رغبة ظهرت أشدّ ما يكون الظهور في خلق نسيج رسمي وشعبي متماسك، يشدّ بعضه أزر بعض في تعاون مخلص وتجاوب عجيب، يجري فيه العمل على خير وجه وفي جميع طبقات المجتمع؛ في المجمع والمعاهد وإدارات الدولة ومؤسساتها، وفي المدارس ودور التعليم، وفي قيادات الجيش وإداراته وقطعه، وفي المراسلات والنشرات وفي الصحف... لقد كان ذلك كله يُنجزُ بحماسة وسرعة وتعاون مخلص، وكأن الكل خلية نحل يحدوها هدف

مقدّس واحد هو العودة بالبلاد إلى عربيتها ولغتها.

ومن حق الذين قاموا بتلك النهضة اللسانية العربية أن نقف عند أعمالهم، ونشيد بمن عرفنا منهم، لأن أكثر الذين كتبوا عن التعريب وبدائياته اتجهوا نحو المعاهد الجامعية كالمعهد الطبي وشيوخ التعريب فيه، أو نحو من عرفوهم أو عرفوا آثارهم، فتحدثوا عنهم وبقي آخرون لم يكشف أحد عن دورهم الوطني والقومي الرائع، الذي قاموا به في ميدان التعريب ووضع المصطلحات، وترجمة الألفاظ وتصحيحها وتقويم الأساليب، والعمل على صحة اللغة ونقائها في الصحف والكتب المدرسية.

لم تكد الحكومة الفيصلية العربية الأولى تقوم في دمشق في تشرين الأول من عام ١٩١٨م حتى جعلت أول واجباتها إحلال اللغة العربية محل التركية في مؤسسات الدولة ودواوينها، ومدارسها وجيشها بإيعازاته وألقابه وأسماء أسلحته، وكان أول ما عملته في سبيل ذلك تأليف اللجان وتكليفها القيام بالترجمة والتعريب والتأليف كل منها في ميدانه ومجال اختصاصه:

- ألفت في تشرين الثاني عام ١٩١٨م لجنة سمّتها «الشعبة الأولى للترجمة والتأليف» مهمتها تدبر أمور اللغة العربية وإحلال الألفاظ العربية محل التركية، وكان من أعضاء هذه الشعبة الشيخ أمين سويد، أنيس سلوم، عز الدين علم الدين (التنوخني)، عيسى إسكندر المعلوف، الشيخ سعيد الكرمي.

- ثم وسّعت الحكومة هذه الشعبة وسمّتها «ديوان المعارف» وكان ذلك في شباط من عام ١٩١٩م وجعلت الأستاذ محمد كرد علي رئيسًا لها.

- وفي ٨ حزيران ١٩١٩م أصدر الحاكم علي رضا باشا الركابي قرارًا بتسمية ديوان المعارف «المجمع العلمي العربي».

وكان المجمع إذ ذاك يضم ثمانية أعضاء هم: محمد كرد علي، وأمين سويد،

وأئيس سلوم، وسعيد الكرمي، وعبد القادر المغربي، وعيسى إسكندر المعلوف، ومتري قندلفت، وعز الدين التنوخي. وانضم إليهم في تشرين الأول من عام ١٩١٩ الشيخ طاهر الجزائري، وعقدوا جلستهم الجمعية الأولى في العادلية^(١) يوم ٣٠ / ٧ / ١٩١٩ وقرروا أن يضموا إلى المجمع كلاً من: ميخائيل بخاش، وعبد القادر المبارك ورشيد بقدونس، ومحمد الخضر حسين التونسي، ومحسن الأمين العاملي، وسليم العنحوري وفارس الخوري وعبد الرحمن الشهبندر، وحكمة المرادي ومرشد خاطر وحسين عوني القضماني.

وكانت كثرة الأعمال المطلوبة من المجمع هي التي اقتضت إضافة أولئك العلماء وجعلهم في شعبتين: شعبة لغوية أدبية، وشعبة علمية فنية.

- وألف الحاكم علي رضا باشا الركابي لجنة من معاونين له، تضم كلاً من سليم الجندي وشاكر الحنبلي وسعيد المسوتي.

- وألف لجنة للتعريب برئاسة ياسين باشا الهاشمي وتضم كلاً من رشيد بقدونس وعبد القادر المبارك ومراد الاختيار، وهي اللجنة التي أنيط بها تعريب **المصطلحات العسكرية**، والتي كانت تجتمع برئاسة الأستاذ رشيد بقدونس، واستمر عملها مدة طويلة وكان لها أعظم الآثار في بواكير التعريب كما سنرى.

- وألف لجنة **المصطلحات العلمية للكتب المدرسية**، وكانت تضم كلاً من ساطع الحصري (رئيساً لها بوصفه مديراً للمعارف) ورشيد بقدونس وعز الدين التنوخي وعبد الرحمن الشهبندر، ولهذا اللجنة أن تستعين بمن تشاء بحسب الموضوعات التي تبحث في مصطلحاتها، وكان ممن استعانت بهم

(1) عقد المجمع بعض جلساته في دار الحكومة، وبعد انتقاله إلى المدرسة العادلية في باب

البريد كانت أولى جلساته في ٣٠ / ٧ / ١٩١٩

حبيب اصطفان^(٢).

وقامت تلك اللجان بما طُلب منها على خير وجه، وإن كان منها من كان عمله مؤقتًا انتهت مهمة لجنته بانتهاؤه، وكان منها من استمرّ في العمل مدة طويلة، كاللجان الجمعية التي ظلت مواكبة لمتطلبات التأليف وإحياء التراث والترجمة والتعريب، فلقد نصّب الجمع نفسه قيّمًا على اللغة العربية في المجالين الرسمي والشعبي، وكان من ورائه مسؤولون حكوميون يشجعون وينفذون، كما كان من حوله مواطنون واعون، سرعان ما كانوا يستجيبون لما يدعوهم إليه، فلقد أذاع الجمع نشرة طلب فيها من دوائر الحكومة ومعاهد التدريس أن تنبئه بما تحتاج إليه من ألفاظ وضعًا وتعريبًا، فأرسل بعضها إليه طائفة من الألفاظ التي قال في نشرة له إنه يشتغل بها وسينشرها بعد عرضها على لجنة مختصة^(٣)، وإن من يطلع على ما جرى من مراسلات بين الجمع وبين القائمين على الدواوين والإدارات المدنية والعسكرية ليدرك كيف كانت الرغبة في امتلاك اللغة العربية ألفاظًا وأساليب، يريدون أن يُحلّوها محل اللغة القديمة الممتلئة بالعجمة والركاكة، ويرى كيف كانوا يتجهون إلى الجمع الجديد الذي أنشئ في ذلك الوقت لينقذهم وينقذ ألسنتهم وأقلامهم. لقد كانت الرسائل تنهال على الجمع من فرق الجيش عن طريق المجلس الحربي الأعلى، ومن الشرطة والأوقاف والمدارس والصحة والمصرف الزراعي، فكان يوافي رغباتهم وينظر في طلباتهم ثم ينشر في مجلته ما أقرته لجانه من الألفاظ داعيًا

(2) حبيب اصطفان لبناني عرف بالخطابة والأدب ونظم الشعر، عمل مع الوطنيين أيام الملك فيصل ثم هاجر إلى الأرجنتين وكان متقلّبًا في هواه، له كتاب «وجدان لا سياسة»، تزوج من كوبا ومات في المهجر عام ١٩٤٦ م (وانظر ترجمته في الأعلام).

(3) انظر المجلد الأول من مجلة الجمع، ص (٣٩٢).

رجال الدواوين والكتّاب والصحفيين إلى استعمالها^(٤).

وكان من أوائل ما نشره المجمع في مجلته من معرّيات استجابةً للرسائل التي وصلت إليه ألفاظُ:

الطابو: ديوان التملك البوليس: الشرطة نوبتجي: آذن، بواب
أودجي: فتراش نومرو: رقم، عدد دركنار: حاشية
خرجراه: نفقات سفر بول: طابع ماصة: مكتب
أوراق مورودة: الرسائل الواردة أوراق مرسولة: الرسائل الصادرة
دوسيه: إضبارة، ملف صوبا: مدفأة استامبه: محبرة الخاتم
روزنامه: تقويم

ومن أمثلة الكتب التي وصلت إلى المجمع كتاب من مدير «نموذج الملك الظاهر» يطلب تعريب كلمات، عرّبها له المجمع ونشرها في المجلد ٣ ص ١٦٠ وهي:

الفاتورة: القائمة أو البيان البوردرو: جدول الرواتب

البورصة: السوق المالية الكامبيو: سعر الصرف

وكان المجمع ينشر ما عرّب في مجلته، كما كان يرسل نسخة من معرّياته إلى الحاكم العسكري يطلب إليه تعميمها، ومن ذلك رسالة بعث بها إلى الحاكم في ١٤ / ١٠ / ١٩١٩ يقول فيها إنّها ألفاظ اختارها بعد مذاكرة وتمحيص، راجياً أن يُعمّم استعمالها لأنها مصطلحات عربية فصيحة فيها إحياء للغة العربية ورجوع إلى نضرتها الأولى.

لقد كان أعضاء المجمع وأعضاء اللجان، ومن يدعوهم المجمع لمساعدته من أعلام العربية في بلاد الشام، يستخرجون مئات الألفاظ من كتب التراث وينظرون

(4) انظر المجلد الأول من مجلة المجمع ص (٤٣).

فيما كان العرب يستعملونه. وكثرت الأعمال لدى المجمعين وتنوّعت ما بين تأليف وتحقيق تراث، وترجمة ألفاظ وتعريب كلمات ووضع مصطلحات ومراقبة لغة الكُتّاب والصحفيين، بل التدقيق في الكتب المدرسية ومراجعتها وتقويم أساليبها، فلقد أصدر مجلس المعارف الكبير قرارًا برقم ١٦٢ وتاريخ ١٧ أيلول ١٩٢١م قال فيه: «تحال الكتب المدرسية إلى المجمع العلمي ليصحح أسلوب إنشائها» ويقول المجمع إنه قد تمّ ذلك في كتب الزراعة والمعلومات المدنية والدروس الهندسية وكتب النحو ودروس الجغرافية للصفوف الثاني والثالث والرابع والخامس من المدارس الابتدائية^(٥) وأذكر أن كتاب القراءة الذي كان مقرّرًا علينا في الصف الخامس الابتدائي وكان اسمه «القراءة الوحيدة» من تأليف رمزي الركابي وآخرين، كتب على غلافه «مراجعة عبد القادر المبارك - عضو المجمع العلمي العربي».

ويستمر المجمع في القيام بأعمال يصعب حصرها، وصلت إلى التدقيق اللغوي في الكتب المدرسية والمذكرات التي تلقى بالعربية في المعهد الطبي والمعهد الحقوقي وتسديد لغة الأقاليم وتعريب الألفاظ^(٦). ويشعر المجمع بصعوبة انفراده بالعمل، فيطلب المساعدة من القادرين في معهد الطب ومعهد الحقوق وفي قيادات الجيش وإدارات الحكومة، ويذيع «أن انفراده بهذا العمل الخطير لا يأتي بالفائدة المطلوبة لما يقتضيه من الإحاطة بالعلوم والفنون العصرية المختلفة، ومعرفة اللغات الأجنبية، فضلاً عن كثرة البحث والتنقيب والتحقيق في الكتب العربية» ويقوم على أثر ذلك تعاون مثمر بين المجمع وبين المؤسسات العلمية التي صادف إنشائها في ذلك العصر. يقول الدكتور عرّة مريدن: «أنشئ المعهد الطبي العربي بدمشق عام ١٩١٩ واختير أساتذته من أساطين الأطباء آنذاك، وتشاء المصادفة أن يكون جلّهم ممن

(5) انظر مجلة المجمع سنة ١٩٢١ المجلد ١ ص (٣٩٢).

(6) انظر مجلة المجمع سنة ١٩٢٢ المجلد ٢ ص (٢٢١).

درسوا الطب باللغة التركية، وكان عليهم جميعاً أن ينفذوا برغبة وطنية، مشيئة القومية العربية التي تلزمهم تعليم الطب بلغة أهل البلاد فشمروا عن ساعد الجد ونبشوا بطون الكتب القديمة ونفذوا إلى صميم المعاجم المختلفة وأخذوا يضعون المصطلحات الطبية^(٧).

ورافق هذا النشاط الجمعي في الأوساط الرسمية انفتاح المجمع على الأوساط الشعبية، ففتح قاعة محاضراته لدعوات عامة يلقي فيها أعضاؤه محاضرات أسبوعية، في موضوعات مختلفة أدبية ولغوية وتاريخية واجتماعية، وخصص قسمًا من محاضراته للنساء، ودعا عددًا من المثقفين وزائري دمشق إلى المشاركة في تلك المحاضرات، وقد استمر ذلك النشاط الرائع منذ بدأ في ١٢ نيسان من عام ١٩٢١ إلى سنوات كثيرة أُلقيت خلالها مئات المحاضرات^(٨)، كما استمرت مدّة طويلة مراقبة المجمع للكتب المدرسية، وللغاسد من لغة الجرائد، ولنشر الألفاظ العربية، وتصحيح الأرقام التي بقيت مستمرة حتى سنة ١٩٢٧ «فقد رأى المجمع أن ينشر في مجلته وفي الصحف من وقت إلى آخر نبذة لا تتجاوز العمودين في نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب». وأضاف قائلاً: «وسنقتصر على ما نظنه خطأ لا يحتاج الأمر فيه إلى الردّ والمناقشة، وندع التصريح باسم الكاتب الذي نؤاخذه والصحيفة التي نُشر فيها»^(٩).

وكثيراً ما كان المجمع ينشر في مجلته وفي الصحف فتاوى لغوية يجيب بها عن

(٧) من محاضرة ألقاها في دار الحكمة بالقاهرة عام ١٩٥٨، وانظر كتاب اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي لمازن المبارك ص (٣٧).

(٨) تجد أسماء المحاضرين وعنوانات محاضراتهم وتواريخ إلقائها في كتاب تاريخ المجمع العلمي للأستاذ أحمد الفتيح.

(٩) مجلة المجمع العلمي سنة ١٩٢١ م.

أسئلة وردت إليه، وقد وجدت مسودة فتوى قدّمها والدي عبد القادر المبارك إلى المجمع حول جمع المصدر، وقد نشرت هذه الفتوى في مجلة المجمع بعد أن تذاكر الأعضاء فيها في جلسة عقدت يوم ٧ / ٩ / ١٩٢١ وقالوا إنهم بحثوا في جمع المصادر مثل التدقيقات والانتخابات، ولو حظ بعد المذاكرة أن المقصود ليس جمع المصادر بل يراد الحاصل بالمصدر وهو أثر الفعل، ومرة يراد به المصدر النوعي (مصدر المرة) مثل: وردت الانتخابات من الأفضية فلا يراد هنا فعل الفاعل وإنما المراد أثره المتكرر بتكرّر الأفضية وهكذا يقال في البواقي»^(١٠).

وبعد، فلعلّ في الصفحات السابقة صورة متواضعة عن حركة نشيطة أو عمل واسع شامل دؤوب مخلص، كان يموج به المجتمع في بلاد الشام، وكان المجمع محوره، والمعاهد الجامعية والمتقنون أجنحته، والمسؤولون خدّاته ومُهمّاته.

ولاشك أن المتتبع لأعمال المجمع وأعداد مجلته وتراجم رجاله وأخبار الترجمة والتعريب في تلك الأيام، يستطيع أن يدرك كثيرًا مما ذكرناه وأن يعرف الجهود المخلصة المثمرة التي بذها رجال كانوا حماة العربية وبناء النهضة اللغوية في بلاد الشام، يقول الأستاذ سعيد الأفغاني: «عرف قراء المجلة ومتتبعو جلسات المجمع أسماء محمد كرد علي وسعيد الكرمي وسليم الجندي وشفيق جبيري وعارف النكدي ومصطفى الشهابي وعز الدين التنوخي وعبد القادر المبارك، كتلة الحماة المحافظين على سلامة العربية المنافحين دونها»^(١١).

ولكن ما لا يعرفه الكثيرون وما لم يتصدّد أحد لتأريخه إنما هو أعمال تلك اللجان التي كان أعضاؤها يجتمعون نهارًا، ويعكفون على المعجمات وعلى كتب التراث ليلاً بحثًا عن ألفاظ عربية فصيحة يضعونها في مقابل الألفاظ التركية

(10) مجلة المجمع، المجلد ١ ص (٣١٤).

(11) حاضر اللغة العربية ص (١٠٦) (دار الفكر ط ٢ سنة ١٩٧١ م).

والأجنبية والعامية التي كانت سائدة ومتداولة. وما لم يذكره أحد هو أسماء أولئك الرجال الذين شاركوا تلك اللجان في الترجمة والتعريب والتأليف وبذلوا من علمهم وجهدهم ثم مضوا إلى رحم لم يذكرهم أحد.

لقد كان المجتمع في تلك الأيام كتلة نشاط، ما إن استنفر الحاكم الناس وأعلن التعبئة اللغوية حتى سخر كل قادر من المثقفين قلمه ولسانه للعودة إلى حضن العروبة ولغتها، وليت الناس اليوم يدركون كم كان للمجمع وللمعاهد العلمية والمدارس (التجهيزية) الثانوية، وملكتب عبر خاصة، من أثر في نشأة التيار الوطني وإحياء الروح العربية وإذكاء الحماسة للنضال، ليدركوا من وراء ذلك كيف كان المستعمر يحاول التغلب على ذلك بالالتفاف على تلك المدارس بإنشاء المدارس الأجنبية، والترغيب في اللغة الأجنبية لكبت روح العروبة الكامنة في لغة العرب وأدبها.

ولعلي أقدم للقراء في العدد القادم من مجلة المجمع صورة أخرى متواضعة لجهود لجنة واحدة من تلك اللجان، وهي اللجنة التي عرفت باسم «لجنة التعريب»، وأضع بين أيديهم ما أستطيع من صورٍ لوثائق تلك اللجنة ولمسودات مراسلاتها، عسى أن يكون مقالي تقريرًا موثقًا صادقًا عما بذلته لجنة واحدة من تلك اللجان التي أناطت بها الحكومة العربية أمر النهوض باللغة العربية.